(القرآن الكريم .. وعلم النص)

أ.د. شكري عزيز الماضي *

الملخص

يطمح هذا البحث إلى تجسيد موقف علمي خاص من النظريات والمناهج الغربية، موقف يتميز ويتحفظ على المواقف الثلاثة السائدة (التبني/ والرفض/ والانتقاء) التي ثبت عقمها: إذ يسعى إلى ضبط عملية الانبهار بالآخر وما تنطوي عليه من مخاطر، ويتجاوز الرفض المطلق وما يؤدي إليه من عزلة ويدل عليه من عجز وسلبية، ويتخطى عمليات الانتقاء والاختيار وما تجلبه من تشتت المصادر وتكريس التجريب وتغييب الرؤية المتكاملة. ويرى - البحث - أن الموقف العلمي الناجع يتمثل في الفهم والتمثل.

ولهذا يقف عند "علم النص" – وهو علم له ذيوع وإغراء لدينا - ليبين ما يؤدي إليه وما يخطئ فيه. وفي سبيل ذلك يعرض موضوع "علم النص" وأسئلته وفلسفته الخاصة ومفاهيمه الجديدة تماماً لـ "النص"، فـ "النص له أعرافه وقوانينه وشفراته وأبعاده وعلاقاته"، وهي مفاهيم تقتضي معالجة أمور عديدة من مثل: قضية المؤلف/ والتأويل/ وفاعلية القراءة/ ونظرية الأجناس/ وعلاقة النص بالعالم/ والنصوصية/ وتداخل النصوص.

ويرى البحث أن مفاهيم "علم النص" ومقولاته وتصوراته لا تتوافق مع كل الكتابات العربية القديمة والحديثة باستثناء "القرآن الكريم". وأن تمثل هذه المقولات - بعيداً عن التبني والرفض والانتقاء - يثير أسئلة مهمة من شأنها الارتفاع ببحوث الإعجاز القرآني إلى مستوى كلي وإنساني عام يتجاوز التوقف الجزئي عند تركيب العبارة (النظم والبلاغة). ولا تتعارض هذه النتيجة المهمة مع تأكيد البحث وتجسيده للتناقضات التي تعصف بـ "علم النص" من حيث الأهداف التي يسعى إليها هذا العلم الجديد أو من حيث المنطلقات التي تعصف بمنطلقاته، إذ يأتي هذا التجسيد تلبية لما يمليه موقف الفهم والتمثل.

* جامعة آل البيت – عمان – الأردن.

إضاءات منهجية :

ينظر هذا البحث إلى النظريات والعلوم والمناهج الغربية باعتبارها إنجازاً إنسانياً - يتخطى الحدود والقيود - ومبادئ عامة لا نمطاً جاهزاً يحاكى أو يحتذى، ويرى أن مثل هذا النظر قد يسهم - تبعاً لوضع الأمة الراهن - في نقلنا من إطار الإتباع والتبني إلى مستوى الإبداع. فالنظريات والمناهج - ومعها الديمقراطية، المرأة، العدالة - كمبادئ عامة وإنجازات إنسانية كونية لا يمكن أن نرفضها - وإلا أصبحنا خارج العصر - لكننا قد لا نقبل– أو لا نتقبل نمطاً "نقدياً" أو "فلسفياً" أو "ديمقراطياً" جاهزاً آتياً من سياق ثقافي وتاريخي مغاير.

ويطمح هذا البحث تبعاً لذلك– والطموح لا يعني دائماً بلوغ الغاية - إلى تجسيد موقف جديد وخاص من التيارات والنظريات والمناهج الغربية، موقف علمي، يسعى إلى ضبط عملية الانبهار بالآخر ومنجزاته وما تنطوي عليه من مخاطر وتجاوز الرفض– وما يؤدي إليه من عزلة ويدل عليه من عجز وسلبية، وإلى تخطي عمليات الانتقاء والاقتطاف وما تجلبه من تشتت ووهم وما تنطوي عليه من تكريس المنحى التجريبي وتعدد المصادر وتغييب الرؤية المنهجية المتكاملة.

وإذ يبدي هذا البحث تحفظه على مواقف القبول والتبني (لأنها تؤدي إلى التضحية بالخصوصية والهوية)، والرفض (لأنه غير ممكن من الناحية العملية والإجرائية) والاقتطاف والاختيار (لأنه لا يسهم في تكوين رؤية خاصة متكاملة لأنفسنا وللآخر وللعالم وهو ما نحتاج إليه منذ مطلع ما سمي بعصر النهضة)، فإنه يرى أن الموقف العلمي من النظريات والمناهج الغربية يمكن تجسيده من خلال فهم هذه النظريات وتمثلها (وأستعير مصطلح التمثل هنا من علم الأحياء) [1]، ولا شك أن الفهم والتمثل يفرضان المضغ والهضم، وهذان - أيضاً - يفرضان بيان السياق الخاص الذي أدى إلى ظهور هذه النظريات والفلسفات والمناهج أي سياقها الغربي (الأوربي - الأمريكي).

وأحسب أن فهمها وتمثلها من خلال سياقها الخاص سيظهر أنها نتيجة طبيعية للصراع المنهجي المستمر في الغرب، وهو في جوهره صراع دائب بين رؤى متعارضة للأدب والنقد واللغة والتاريخ والإنسان والعالم. وهو صراع يحمل في طياته علامة صحة وقوة، لكنه قد يومئ في الوقت نفسه إلى أزمة الإنسان عامة وبحثه الدائب عن الحقيقة وعن عالم أفضل. كما

سيظهر - الفهم والتمثل - الجذور التاريخية لهذه المناهج ومفاهيمها وفلسفاتها ومصطلحاتها، ويبين إضافاتها الجديدة - المقترنة - كأي جهد بشري - بما تنطوي عليه من مفارقات أو تناقضات.

ولا شك أن معرفة سياق أي علم وتمثله ومعرفة مواطن قوته وإضافاته ومواطن قصوره أو تناقضاته ستجعلنا أكثر قدرة على التحكم به وعلى تحديد مواضع الإفادة منه، شريطة أن تتحول هذه المعرفة إلى أداة أو عنصر فاعل في تشكيل رؤيتنا الخاصة لأنساق ثقافتنا المعاصرة ودورها وموقعها في العالم.

وفي سبيل ذلك يقف هذا البحث عند "نظرية النص" أو "علم النص"، ويعرض سياقه العام وفلسفته وأسئلته ويركز على مفاهيمه الجديدة تماماً لـ "النص"، فالنص له أعرافه وقوانينه وشفراته وأبعاده وعلاقاته، وهي مفاهيم تقتضي - كما سيتضح – معالجة أمور عديدة من مثل: قضية المؤلف، والتأويل، وفاعلية القراءة، ونظرية الأجناس، وعلاقة النص بالعالم وبالنصوصية وتداخل النصوص.

والسؤال الذي يبرز هنا هو: **إلى أي مدى يمكن الإفادة من هذه المفاهيم والقضايا؟!** وقبل الإجابة عن هذا السؤال - وربما من أجل الإجابة - لابد من طرح السؤالين التاليين: **لماذا .. علم النص؟! و.. لماذا .. القرآن الكريم؟!:**

لماذا .. علم النص؟!:

يقف هذا البحث عند "علم النص" [2] لما له من ذيوع وإغراء لدينا، ويمكن ملاحظة ذلك في الاستخدامات العديدة لمقولاته ومصطلحاته من مثل النص، والنصوصية، والتناص، وشفرات النص وتأويله...إلخ.

ويمكن تأكيد انتشاره في الإشارة إلى العديد من الدراسات العربية التي اعتمدت مفاهيمه ومقولاته في تحليل الكثير من النصوص الشعرية والنثرية العربية القديمة والحديثة من مثل:

- تحليل الخطاب الشعري؛ استراتيجية التناص، للدكتور محمد مفتاح من المغرب العربي، وقد صدر عام 1985م.

- الخطيئة والتكفير؛ من البنيوية إلى التشريحية (Deconstruction)؛؛ قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، للدكتور عبد الله محمد الغذامي، من السعودية وقد صدر عام 1985م أيضاً.

- في البحث عن لؤلؤة المستحيل، دراسة لقصيدة أمل دنقل "مقابلة خاصة مع ابن نوح" وهذه الدراسة تحمل عنواناً فرعياً آخر هو "مع فصل تمهيدي؛ نحو منهج علمي لدراسة النص الأدبي"، وهي للدكتور سيد البحراوي، من مصر، وقد صدرت عام 1988م.

- ظاهرة التناص نظرياً وتطبيقياً، للدكتور أحمد الزعبي من الأردن، وقد صدر عام 1993م.

وإضافة إلى الترجمات العديدة فإن المرء يمكن أن يشير إلى مؤتمركم هذا الذي تتردد عبارة النص في موضوعه الرئيسي وفي محاوره الرئيسية والفرعية، وهو ما يعني اهتماماً ملحوظاً بـ "النص وتحليله وتأويله وتلقيه وبـ شفراته وأبعاده وعلاقاته...إلخ. وربما يدل هذا الاختيار لموضوع المؤتمر ومحاوره على التأثر المباشر أو غير المباشر بعلم النص ومقولاته ومفاهيمه.

ولابد أن يؤكد المرء هنا أن ذكر ما تقدم من دراسات وظواهر لا يتضمن حكم قيمة من أي نوع، إذ يأتي في سياق تأكيد ما لعلم النص من ذيوع وانتشار.

لماذا .. القرآن الكريم؟!:

إن وقفة هذا البحث عند "القرآن الكريم" .. وعلم النص" تهدف إلى التحقق من فرضية مهمة هي أن مقولات علم النص ومفاهيمه الجديدة حول "النص" لا تتوافق مع كل الكتابات العربية القديمة والحديثة باستثناء كتاب واحد هو "القرآن الكريم". فعلم النص يمكن أن يبدو مفيداً ولا سيما في إثارة أسئلة جديدة تتصل ببحوث الإعجاز القرآني.

وسيجد القارئ - فيما سيأتي - أن هذه الفرضية تأتي في سياق البحث عما يمكن أن يؤدي إليه "علم النص" وما يخطئ فيه. وهي فرضية مقيدة لا مطلقة، إذ لا تنبثق من خلال التأمل أو الرغبات الذاتية أو الانبهار، بل تستخلص من خلال استقراء دقيق لمنطلقات علم النص ومفاهيمه ونتائجه وأهدافه - وأود أن أضيف - واستقراء للمفارقات والتناقضات التي تعصف بهذه المنطلقات والأهداف. ولهذا أود أن أؤكد بأنه بمثابة ابتكار جديد يبدو مفيداً لكنه سرعان ما يتداعى.

السياق العام/ الإطار الثقافي والفلسفي:

علم النص علم جديد، إذ يتخذ من النص موضوعه ومادته، ويسعى - كأي علم آخر - إلى اكتشاف سلسلة القوانين التي تحكم المادة موضوع العلم. فاهتمامه وأسئلته تنصب على النص وكيفية تكونه وحدوده... إلخ.

وقد ظهر للمرة الأولى في أبحاث عديدة لـــ "جوليـا كريـستيفا" (Julia kristerva) نشرت في فرنسا بين عامي 1967/1966م، وازدهر فـي كتابـات جـاك دريـدا (Jacques Derrida) وتودوروف (Tzvetan Todorov) وجوناثان كلر (Jonathan Culler) ورولانـد بارت (Roland Barthes).

وبعيداً عن التحديدات الزمنية الصارمة فإن علم النص ينتمي إلى المرحلة التي سـميت "ما بعد البنيوية"، والإطار الثقافي العام لهذه المرحلة أو لمرحلة ما بعد البنيوية يتمثل في انـسداد الأفق أمام فلسفة الحداثة ومقولاتها، فمنطلق هذه المرحلة يقوم على التشكيك الجذري بمـسلمات النزعة الإنسانية وإنجازاتها وضرورة تجاوز مقولات: الذات والتنوير والاعتمـاد علـى العقـل الخالص ومركزية الإنسان، فمثل هذه المقولات تحتاج إلى مراجعة شاملة.

ويبدو لي أن عبارة "ما بعد البنيوية" (Post structuralism) تحتاج إلى توضيح، وأن بيان حدودها وفحواها بدقة سيلقي بأضواء على تيارات ما بعد البنيوية ومن ضمنها علم الـنص: فعندما نقول إن علم النص ينتمي إلى "ما بعد البنيوية" فإن هذا يعني أن علم النص قد تحول عـن البنيوية، لكن التحول لا يعني قطع كل الخيوط التي تصله بالبنيوية، لأن التحول لا يـصل إلـى مرحلة التراجع، كما لا يعني العودة إلى ما سـمي بالنظريـة الإنـسانية (Humanism) التـي رفضتها البنيوية بعنف مثلما رفضها علم النص.

ولتوضيح هذه القضية المهمة جداً لابد من القول إن النظرية الإنسانية قد قدمت "تجربة الذات (التي تكون سابقة على الدوام للعلاقات الاجتماعية) بوصفها مـصدراً للمعرفـة، ومكانـاً تصدر عنه الحقيقة" [3] وقد رفضت البنيوية هذه النظرية كما رفضت الفلسفات السابقة ومقولاتها المتمثلة في "الذات" و"الموضوع" و"التاريخ" و"الإنسان" لتحل محلها محاور جديدة من مثل "البنية" و"النسق" و"النظام" و"اللغة"، ولا شك أن رفض محور "الذات والموضوع" يعني رفـض النزعـة الإنسانية والتاريخية والأيديولوجية.

وتعد مقولات علم النص ومفاهيمه استمراراً لهذا الرفض، فعلم الـنص يـسعى إلـى استخلاص الأعراف والقوانين الكامنة في ثنايا النصوص مـع إغفـال شـبه مطلـق للعلاقـات الاجتماعية التاريخية (الخارجية/ أو الخارج - نصية) وهو بهذا يلتقي مع البنيوية أيضاً.

ولهذا فإن تحول علم النص عن البنيوية يتمثل في رفضه لفكرة "النظام الواحد" أو "البنية الواحدة" أي فكرة النمط الواحد الذي يتحكم في نصوص متعددة وهو ما توصلت إليه البنيوية– بل وأضافت بأن البنية الواحدة ثابتة ومغلقة[4]، بينما يرى علم النص أن النص ينطوي على بنيـات

عديدة وبؤر لا حصر لها وأنماط أكبر من أن تعد، والنص مفتوح ومتحرك ومتفاعل، لكن تفاعله وحركته وانفتاحه ينحصر في النصوص الأخرى فقط، وهذا قد يفسر مقولة جاك دريدا المركزية "لا شيء خارج النص". فكما هو الشأن لدى البنيوية - التي تفصل الأعمال الأدبية عن سياقها الاجتماعي التاريخي وترى أن البنية تتكون لا شعورياً - فإن علم النص يرى أن النصوص تتكون وتتفاعل بعيداً عن المنتج (الأديب) أو مقام الإنتاج (السياق الاجتماعي التاريخي)، كما أن هذه التفاعلات تتم بآليات لا شعورية - سأشير إليها بعد قليل - يفرضها منطق النص لا منطق الكاتب.

ولهذا كله فإن من المهم التأكيد بأن "ما بعد البنيوية" ليست ثورة على البنيوية بل هي في جوهرها ثورة البنيوية على نفسها (فالفرضيات التي حاولت التحقق منها ثبت عدم صحتها إذ ثبت أن البنية متحركة لا ثابتة، ومفتوحة لا مغلقة مما فرض التحول إلى المابعد)، ويجب أن نلاحظ أن أعلام علم النص - في معظمهم – هم أعلام البنيوية نفسها. ولهذا لابد من القول إن مرحلة المابعد تعني بدقة المابين. فالمنظور المعرفي (Epistemology) لم يتغير، والهدف الاستراتيجي – للبنيوية وعلم النص - ما زال واحداً وماثلاً في الكشف عن الأعماق الخفية اللاشعورية للرمزية البشرية[5].

علم النص: تساؤلات ومفاهيم جديدة:

موضوع علم النص هو "النص"، فالمادة الرئيسية لهذا العلم هو النص، فهو علم جديد لأن موضوعه جديد. فالفلسفات والعلوم السابقة تناولت النص ودرسته وتفحصته كوسيلة لتأكيد موضوعاتها ونظرياتها والتحقق من فرضياتها، لكن النص هنا هو مادة علم النص - كما أسلفت - فالنص - كموضوع لا ينسب بحال إلى تلك الفلسفات والعلوم وهو بهذا المعنى حقل منهجي.

فمصطلح النص ذو أبعاد جديدة وجهاز حديث من المفاهيم، ويستند إلى منظور معرفي وفلسفي جديد. ومن المهم جداً أن يؤكد المرء أن النص - في ضوء علم النص - لا يعني أبداً - ولا يلتقي أو يتقاطع - مع ما هو مألوف وسائد عن النص من مثل:

- النص هو القول المحكم من قرآن أو حديث.
- النص هو الترتيب اللغوي الخاص.
- النص هو الأقوال المحكمة المترابطة/ أو الممتدة لتأدية معنى.
- النص هو الجمل المرصوفة المنسقة المرتبة المتضافرة.

كما أن مصطلح "النص" يأتي هنا بديلاً ومضاداً لمصطلح "العمل" البنيوي[6] فالنص له بنيات لا بنية واحدة، وهو متحرك وليس ثابتاً، ومفتوح على النصوص الأخرى وليس مغلقاً.

والنص - من جهة ثالثة - يتميز عن الأثر الأدبي، فالنص نسيج من العلامات Signes[7]، أما الأثر فينحصر في المدلول. وهذا المدلول له نوعان من الدلالة: ظاهرة (وحينئذ يكون الأثر موضوعاً لعلم يهتم بالمعنى الحرفي كفقه اللغة) أو مضمرة (وحينئذ ينبغي التنقيب عنه ويصبح الأثر موضوعاً لتأويل. لكن النص - لكونه كتابة متعددة - فإنه لا يقبل التنقيب أو التأويل فهو لا يتطلب إلا الفرز والتوضيح. فالنص تمددي مجاله هو مجال الدال. والأثر الأدبي (في أفضل الأحوال) رمزي بدرجة وضيعة (رمزيته قصيرة النفس أي سرعان ما تتوقف) أما النص فطاقته الرمزية مطلقة[8].

هذه التمايزات والتباينات سوغت ظهور أسئلة علم النص الجديدة: ما النص؟ وكيف يتكون؟ وما الذي يجعل من النص نصاً؟ وهل للنص حدود؟ وما علاقة النص بالنصوص الأخرى (النصوص المتكونة أو التي في طور التكون)؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟

وفي معرض الإجابة عن هذه الأسئلة قدمت مفاهيم جديدة تتصل بالنص. فـ "جوليا كريستيفا" ترى أن "كل نص عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى"[9]. أما "ليتش" (Vincent.B.Leitch) فيرى أن "النص ليس ذاتاً مستقلة أو مادة موحدة ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى. ونظامه اللغوي، مع قواعده ومعجمه، جميعاً تسحب إليها كماً من الآثار والمقتطفات من التاريخ، ولهذا فإن النص يشبه في معطاه جيش خلاص ثقافي بمجموعات لا تحصى من الأفكار والمعتقدات والإرجاعات التي لا تتآلف. إن شجرة نسب النص حتماً لشبكة غير تامة من المقتطفات المستعارة شعورياً أو لا شعورياً. والموروث يبرز في حالة تهيج. وكل نص حتماً: نص متداخل"[10]. ويؤكد "روبرت شولز" (Robert Schools) "... أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى مثلما أن الإشارات تشير إلى إشارات أخرى، وليس إلى الأشياء المعنية مباشرة. والفنان يكتب ويرسم لا من الطبيعة، وإنما من وسائل أسلافه في تحويل الطبيعة إلى نص. لذا فإن النص المتداخل هو: نص يتسرب إلى داخل نص آخر، ليجسد المدلولات سواء وعى الكاتب بذلك أو لم يع"[11].

وأحسب أن هذه التعريفات تثير أسئلة جديدة فهل النص: كتاب؟ ممارسة دالة؟ جهاز لغوي؟ شبكة من المعطيات الألسنية والبنيوية؟ وعاء لدلالات متجددة؟ حيز لغوي متجدد المعاني؟

وحدة بلاغية؟ حقل منهاجي؟ نسيج من العلامات؟ وما معنى النص الظاهر؟ والنص المنجب؟ والنص الجامع؟ [12].

وربما أضفت هذه التعريفات والأسئلة التي ولدتها قدراً من الغموض، لكن المرء يجب أن يذكر حقيقة مهمة هي أن علم النص وتيارات ما بعد البنيوية لا تعتني بالإجابات بمقدار ما تهتم بإثارة الأسئلة والتساؤلات، ولتبديد هذا الغموض يمكن القول: إن معظم أسئلة علم النص تدور حول "النص"، والسؤال الرئيسي لعلم النص هو: ما النص؟!.

وللإجابة عنه، والإفادة من هذه الإجابة في بحوث الإعجاز القرآني لابد من تأمل الملاحظات المتكاملة الآتية:

ما النص؟:

1 - يولد النص من تكاثر (تلاقح/ تفاعل) النصوص المنجزة سابقاً والنصوص (الآتية) التي في طور التكون. فالنص قد يمهد لتكون أو ولادة نصوص في المستقبل. ولتوضيح ذلك يمكن القول بأن اليوم الأول في حياة المولود هو اليوم الأول في الاتجاه إلى الموت في آن واحد. وهذا ما يفسر مقولات جاك دريدا "في البدء كان الاختلاف" و"المعنى في الاختلاف" [13] فهوية المعنى هي الاختلاف (أي لا يوجد معنى واحد أو وحيد أو محدد)، وبعبارة أخرى إن الشك هو هوية الحقيقة وليس وسيلة للوصول إلى الحقيقة. وهذا المرتكز الفلسفي الجديد يتصل بقضية الدلالة والتأويل - كما سيتضح - فالنص لا ينطوي على دلالة واحدة أو معنى محدد.

2 - النص/ خطاب/ لغوي/ مكتوب. واللغة منظومة لا نهاية لها ولا مركز، فالكلمة ليست مغلقة، وليست مكتفية بذاتها، بل هي مجموعة/ حزمة من الكلمات والمفهومات المتعددة القابلة - ليس فقط لاستعمالات عديدة - بل للدخول أيضاً مع مفردات أخرى في تركيبات عنقودية (رأسية/ وأفقية) لا نهاية لها. فالنص نسيج من العلامات ينمو شبكياً لا عضوياً (أي أن الصورة المجازية للأثر توحي بصورة الكائن العضوي الذي ينمو بفعل التكاثر الحيوي، أما الصورة المجازية للنص فتوحي بالشبكة).

3 - النص/ كتابة لغوية/ تطرح إشكالية التصنيف وتجربة الحدود، فما يحدده هو قدرته على خلخلة التصنيفات القديمة، وعدم الخضوع - بل التمرد - على التقسيمات المألوفة للأجناس: فهل هذه الكتابة: قصة، شعر، فلسفة، اقتصاد، فقه؟ إذا كانت الإجابة عسيرة فهي نص، وإلا فهي أثر

أو عمل، فالكتابة التي تستعصي على التصنيف أو التي توجد على الحدود (حدود الأجناس المعروفة) هي نص.

4 - فالنص بلا حدود. إنه حيوي متجدد متغير. فالنص لا تحده قراءة واحدة ولا ينطوي على دلالة واحدة أو وحيدة. بل ولا يتضمن بؤرة مركزية أو بنية محددة (بناءً محدداً). والأصح أن نقول إن النص يتضمن دلالات لا حصر لها وبؤراً لا يمكن أن تعد وبنيات لا نهاية لها.

فالنص منداح باستمرار، ومتدفق دائماً وبالتالي فهو بلا نهاية (وللتدليل على ذلك يمكن القول: إن هناك قراءات متعددة لنص واحد من قبل قراء عديدين. بل إن القارئ الواحد إذا ما قرأ نصاً واحداً في فترتين زمنيتين متباعدتين أو متقاربتين فإنه سيخرج بانطباعات متباينة وبمعانٍ مختلفة. ثم هناك القراءات المتعددة لنص ما من عصر إلى عصر. فالنص يتدفق بالمعاني والدلالات المتعددة أو المتنوعة. أو هو منتج لها بلا توقف. وهذا قد يفسر القول السابق: بأن رمزية الأثر سرعان ما تتوقف أما رمزية النص فمطلقة ومستمرة).

5 - استناداً إلى ما تقدم فإن النص لا يمتلك دلالة واحدة، لأن الدلالة رمزية دائماً. بل إن النص في دلالاته يتضاعف مثل المتوالية الرياضية تبعاً لتعدد القراءات. لهذا يرفض علم النص قضية التأويل برمتها، أو بالأحرى يرى أصحابه أن المنطلق الأساسي هنا هو قبول النص تأويلات متباينة متعارضة لا نهاية لها.

6 - ولتوضيح قضية التأويل المهمة يمكن القول إن علم النص يرى أن الأنظمة المعرفية التي اكتسبها القارئ/ المؤول (المقصود بالأنظمة المعرفية الأعراف والتقاليد والسياق الثقافي) هي التي تحدد الدلالة وتوجه القراءة/ القارئ، وإذا تغيرت هذه الأنظمة فإن إمكانات الدلالة ستتغير.

ولهذا فإن تواصل فعل القراءة واستمراره يؤكد أن النص يتضمن تأويلات لا حصر لها، وهو ما ينفي - مرة أخرى - فكرة البنية الواحدة أو النظام الواحد أو المركز الواحد أو البؤرة الواحدة أي فكرة النمط الواحد[14].

تصورات جديدة:

يتضح مما تقدم أن علم النص يثير أسئلة وتساؤلات لا حصر لها. لكنه يهدف – وهذا مصدر قوته - إلى تقديم تصورات جديدة بالمقام الأول أكثر مما يهتم بدحض التصورات الراسية.

فهو يقدم مفهوماً جديداً لمصطلح "الكتابة" فالكتابة ليست رسماً للأصوات اللغوية على الورق بل تمثل وجوداً كلياً له تفاعلاته الذاتية القائمة على آليات:

- الاستدعاء.
- التحويل[15].
- الإذابة.

وهي آليات لا شعورية، فتفاعل/ تكاثر/ النصوص المكتوبة لا علاقة له بنظام الخيال (العلاقة مع الكاتب) أو نظام التوصيل (العلاقة مع المتلقين) أو نظام الواقع (السياق الاجتماعي التاريخي).

كما يقدم مفهوماً جديداً لمصطلح "النص". فالنص "المكتوب حتماً" يتصف بصفات محددة بدونها قد يكون أثراً أو عملاً أو ما شئت. لكن النص الذي يستحق هذه التسمية - ذو سمات وخصائص جديدة تماماً. وإذا ما استعرض المرء التراث العربي المكتوب وفقاً لهذه السمات فإنه لن يجد "نصاً" يتوافر على هذه الخصائص والسمات سوى القرآن الكريم، فالقرآن الكريم:

1 - نص مكتوب (نص/ كتابة) (يمكن الإشارة هنا إلى سورة "العلق") فجبريل عليه السلام يطلب من الرسول أن يقرأ، وقد يوحي هذا أن السورة مكتوبة. كما أن جواب الرسول الكريم: ما أنا بقارئ، قد لا يعني: لا أعرف القراءة بل قد يعني لا أستطيع القراءة في هذا الموقف أو لا أريد القراءة الآن. وفي صدر السورة إشارة مهمة إلى أداة من أدوات الكتابة وهي القلم: **"اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم."**[16]. ونقرأ في سورة "آل عمران": **"نزل عليك الكتاب."**[17] فقد عبر عنه بالكتاب/ اسم جنس/ إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية الأخرى[18].

2 - يطرح القرآن الكريم "إشكالية التصنيف وتجربة الحدود"، إذ ليس له شكل محدد ولا ينتمي إلى أي جنس من أجناس الكتابة المعروفة أو المألوفة (اقتصاد، أدب، فلسفة، تاريخ ... إلخ).

3 - توضح النظرة الشمولية الكلية أن القرآن الكريم ليست له بؤرة مركزية (بل يتضمن بؤراً لا نهاية لها)، فهو يقرأ من أي صفحة دون مشكلة تذكر.

4 - القرآن الكريم له فاتحة/ ولكن ليست له بداية أو نهاية بالمعنى المألوف (فنموه شبكي لا عضوي كما هو شأن الأجناس الأخرى من الكتابة).

5 - القرآن الكريم يقبل تأويلات عديدة (حظي بهذا وربما سيبقى يحظى بتأويلات لا نهاية لها).

6 - القرآن الكريم ذو طاقة رمزية مطلقة.

7 - الإحالة المرجعية (في القرآن الكريم) على النص نفسه(يرى ابن رشد أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، ويرى القرطبي صاحب التفسير المعروف أن "القرآن الكريم كالسورة الواحدة").

8 - حقوق طبع النص القرآني غير محفوظة لأحد.

والسؤال الذي يبرز هنا هو: ما الذي يترتب على مثل هذا الاستخلاص، وكيف يمكن الإفادة منه في بحوث الإعجاز القرآني؟

الخلاصة/ والنتائج:

أولاً: إن مفاهيم علم النص وتصوراته ومقولاته لا تتوافق مع كل الكتابات العربية القديمة والحديثة (بسبب خضوعها للأجناس المعروفة، وبنيتها المحددة، ورمزيتها المحدودة) باستثناء القرآن الكريم. وهذه النتيجة مهمة للمتخصصين في الدراسات والبحوث الأدبية والنقدية.

ثانياً: إذا كان النص بلا مركز/ بؤرة تنظم المعنى وحركة المعنى، فإن علم النص لا يكترث، بل ينحي جانباً قضية اللفظ والمعنى، وقضية المفهوم والصورة أو المضمون والشكل.

ثالثاً: إن النظرة الشمولية والكلية للقرآن الكريم (التي تتضمن بنيته الشكلية الخارجية والداخلية الفريدة) تمكن من الارتفاع ببحوث الإعجاز إلى مستوى كلي وإنساني عام يتجاوز التوقف الجزئي عند تركيب العبارة (النظم والبلاغة مثلاً). فالمفسر أو الباحث/ المحلل لا يتحرك داخل العبارة المفردة وحدها وإنما يحاول أن يستخرج الظاهرة (الجمالية) التي تنتظم الآيات كلها في نسق تركيبي كلي وشمولي، ويستنبط "النظام" الذي يحكم البنية الشكلية العامة للقرآن الكريم.

رابعاً: إن النظرة الشمولية الكلية للقرآن الكريم تسوغ طرح السؤال المهم التالي (مع الأخذ بعين الاعتبار ظاهرة الآيات المحكمات والمتشابهات): إذا كانت تأويلات النص (القرآني) متباينة ومتعارضة أحياناً (لا يوجد معنى واحد أو وحيد) فأين يكمن الإعجاز؟ بمعنى آخر: هل يكمن إعجاز النص القرآني في لغته (فقط)؟ أم يكمن في بنيته الفريدة؟ أم أن إعجازه في إنجازه (أيضاً)؟ وأعتقد أن محاولة الإجابة عن هذا السؤال ستفتح أفقاً جديداً ومجالاً خصباً لتجسيد الإعجاز القرآني، ولا سيما أمام الأمم الأخرى (غير الناطقة بالضاد).

كلمة أخيرة لابد منها:

أود أن أضيف بأن الهدف الذي تطلعت إليه جوليا كريستيفا من وراء مغامرتها هو "صياغة رؤية كلية للنص تكون نسقية ومتحررة، بنيوية ووظيفية، علمية وتحليلية، نظرية وإجرائية، محايثة وخارجية في الآن نفسه"[19]، وهذا الهدف ينطوي على مغامرة لأنه ينطوي على مفارقة، لأن الحديث عن علم النص يفرض: إدارة الظهر للذات الكاتبة، والتلقي، والطابع الفكري والتاريخي[20]، أي يتطلب إغفال: الواحد (المبدع)، والخارج المطلق (السياق التاريخي

والحضاري)، والآخر (المتلقي) فهل هذا ممكن؟ وهل يمكن أن تتصف هذه المغامرة بالموضوعية التي يتطلبها العلم؟ وهل يمكن إنشاء علم جديد إذا تم تغييب المبدع والمتلقي والسياق؟ أي تغييب الإنسان؟! هذه الأسئلة وغيرها هي التي دفعتني إلى القول في موضع سابق من هذا البحث: إن علم النص بمثابة ابتكار جديد يبدو مفيداً ولكنه سرعان ما يتداعى.

الهوامش:

1. يلاحظ أن مصطلح التمثل (Assimilation) له أكثر من مستوى، والمعنى المستمد من علم الأحياء الذي أشرت إليه يحيل إلى عملية "الاستقلاب" أي تحول الطعام إلى طاقة، وبالمثل تحول المنجز الغربي إلى طاقة تسهم في تعميق رؤيتنا. وهناك مستوى آخر للتمثل فهو: نشاط عقلي يتجه إلى إدماج موضوع معين أو موقف معين في مخطط نفسي أشمل"، وحول هذا المعنى يمكن النظر في "قراءة التراث النقدي" جابر عصفور، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1994م، ويلاحظ أن المعنيين يشتركان في التركيز على معنى الاستيعاب والتحويل والإدماج. وهو ما يجعل المصطلح متميزاً عن التبني أو المحاكاة أو الرفض أو الانتقاء. وهذا ما أسعى إلى تأكيده وترسيخه.
2. إضافة إلى علم النص هناك العديد من العلوم التي لقيت انتشاراً واهتماماً من قبل مثقفينا ونقادنا من مثل: علم الأدب، علم السرد، علم الوصف، علم العلامات، علم الخطاب، علم العنونة.
3. مقدمة في نظريات الخطاب: ديان مكدونيل (Diane Macdonell)، ترجمة وتقديم عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001م، ص126.
4. البنية لدى البنيويين ليست ثابتة بصورة مطلقة، فهي متحركة لكن حركتها لا تخرج عن إطار البنية ذاتها مما يجعلها مغلقة، ولمزيد من التفصيل انظر في: مشكلة البنية: زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، 1976م، ص34 وما بعدها.
5. انظر في "مشكلة البنية": ص29 وص38 وما بعدها.
6. من المهم الإشارة إلى أن البنيوية تستخدم مصطلح العمل الأدبي لا النص، بمعنى الاكتمال، فالعمل الأدبي عمل مكتمل أي مكتف بذاته ومنتهٍ بالزمان والمكان وثابت ومغلق. وفي ضوء التحول من البنيوية إلى ما بعدها كتب رولان بارت بحثه المهم (From Work To Text)

"من العمل إلى النص" عام 1971م. وأود أن أشير أن نظرية الانعكاس والنقد الماركسي عموماً يستخدم مصطلح العمل الأدبي بدلالة أخرى هي الإنتاج.

7. يعتبر "بارت" أن العلامة تحيل بالضرورة على علاقة بين متعالقين، وهذه العلاقة مباشرة وغير مباشرة. انظر تفصيل ذلك في "دروس في السيميائيات" د/حنون مبارك، دار توبقال، المغرب، ط1 1987م، ص38.
8. درس السيميولوجيا: رولان بارت، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط2، 1986م.
9. الخطيئة والتفكير؛ من البنيوية إلى التشريحية (Deconsruction) عبد الله محمد الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 1985م، ص322.
10. المرجع نفسه: ص321.
11. المرجع نفسه: ص320، 321.
12. لمزيد من التفصيل انظر في "نظرية النص" رولان بارت، ترجمة منجي الشملي وعبد الله صولة ومحمد القاضي، حولية الجامعة التونسية، عدد 27، 1988م، ص69 وما بعدها.
13. الكتابة والاختلاف: جاك دريدا، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال، المغرب، ط1، 1988م، ص31.
14. استفدت - بتصرف في عرض الآراء والملاحظات السابقة من:
15. الخطيئة والتفكير؛ من البنيوية إلى التشريحية (Deconstruction)، عبد الله محمد الغذامي، مرجع سابق.
16. درس السيميولوجيا، رولان بارت، مرجع سابق.
17. الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، مرجع سابق.
18. Rivkin, Julie and Ryan Michael, eds. Literary Theory: An Anthology, Oxford, Black well, 1998, pp 334-355.
19. Payne, Michael: ADictionary of Cultural and Critical Theory, Oxford, Blackwell, 2001, pp136- 138.
20. آلية التناص: زهور لحزام، مجلة الناقد، عدد 20 ديسمبر 1990م، ص59.
21. القرآن الكريم: سورة العلق/ 1 -4.
22. القرآن الكريم: سورة آل عمران/ 3.

23. أعترف - صادقاً – بضعفي أمام النص القرآني، فلست مؤهلاً لتفسيره أو تأويله. قال تعالى: ".. وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم". آل عمران/ 7.

24. و(20) علم النص: جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، ط1، 1991م، ط2 1997م، دار توبقال، المغرب، والطبعة المعتمدة هنا هي الطبعة الثانية، انظر الصفحات 5، 11، 13.